تحقيقات لغوية

الأستاذ
عبد القادر زمامة

في مقال سالف تحدثنا عن كلمات : الشكازة والشكاز . والحوالة . والوادي بمعنى النهر والنسبة الى مقرة ... !

وفي هذا المقال نتابع الحديث بالكلام على : المصارة والمسرة .. !

المصارة : كلمة معروفة ومستعملة في كتب المؤرخين والجغرافيين الاندلسيين . كما انها معروفة ومستعملة في المغرب نجدها في عدة مصادر تاريخية مخطوطة ومطبوعة سنشير اليها فيما بعد ... !

والمعنى الاجمالي الذي يتبادر الى ذهننا لهذه الكلمة . عندما نجدها في النصوص الاندلسية والمغربية هو انها تعني عند الذين يستعملونها في كتاباتهم ... الفضاء الفسيح الذي يقع خارج المدن الكبرى وتحيط به الجنات والحقول مما يجعله معدا لاقامة المهرجانات والافراح العامة .. والتمتع بجمال الطبيعة في فصل الربيع ... !

لكن هذا المعنى الاجمالي الذي ندركه من خلال الاستعمال . لا يكفينا في ميدان التحقيق اللغوي الذي يحدد المعاني بدقة . استنادا على نصوص معجمية . او استعمالات اصطلاحية معينة .. !

لذا كان البحث هنا في هذه الكلمة منصرفا الى نقطتين :

الاولى : الدلالة الحقيقية لهذه الكلمة .

الثانية : الرسم الصحيح لكتابتها

ولنبدأ في النقطة الاولى ... بالاشارة الى بعض الكتب الاندلسية التي استعمل مؤلفوها كلمة المصارة لنرى مدلولها هناك ... !

— فمؤلف الكتاب المسمى (باخبار مجموعة) يستعمل كلمة المصارة باعتبارها اسم مكان معين يقع خارج عاصمة قرطبة ... ! جرت فيه عدة احداث ومعارك بين عبد الرحمان الداخل الاموي ... وبين محاربيه قبل ان يتم له الامر ... !

بل اننا نجد مؤلف هذا الكتاب يذكر المصارة في اخبار ثعلبة بن سلامة سنة 124 هـ . قبل مجيء عبد الرحمان الى الاندلس ... وقد اقام ثعلبة هذا سوقا عند المصارة ... وباع بها اسراه من خصومه المغلوبين ... !! (1)

— ومؤرخ الاندلس ابو مروان ابن حيان القرطبي (377 هـ — 469 هـ) يذكر المصارة عدة مرات

---

1) اخبار مجموعة ... ص 45

وذلك فى القسم المطبوع من كتابه (المقتبس) فى بيروت 1965 م ... وذكر ابو حيان فى القسم المذكور استقبالات كبرى جرت فى مصارة قرطبة احتفالا بضيوف الاندلس الوافدين على عاصمتها اذ ذاك..!!(2)

كما ذكر أشياء أخرى وقعت فى هذه المصارة .. !

وفى هذا الكتاب وفى غيره نجد مصلى المصارة (3) لكن المصارة ليست موجودة فى قرطبة

وفى هذا الكتاب ليست موجودة فى قرطبة وحدها بل ان هناك عدة مدن اندلسية نجد فيها مصارات اخرى لا غرض لنا باستقصائها الآن .. !

ويكفينا الآن أن نرجع الى القسم المطبوع من كتاب (ترصيع الاخبار وتنويع الآثار) الذي الفه الجغرافي الاندلسي احمد بن عمر العذري المعروف بابن الدلائي لنجد فيه خبرا عن : « وقيعة المصارة بلورقة » (4) باقليم مرسية ، وبذلك تأكد لنا ان

(المصارة) ليست علما على موضع خاص فى قرطبة . . ! بل هي « اصطلاح » اندلسي عرف واستعمل عند الاندلسيين منذ سنواتهم الاولى ... حتى صار لكل مدينة كبرى هناك مصارة ...!

ولابد ان نتساءل عند البحث ... عن الكيفية اللغوية التي نشأ بسببها هذا الاصطلاح هناك ... ! وعند الرجوع الى (تاج العروس) نجد هذا النص اللغوي :

« مصر الفرس كعني استخرج جريه .. ! والمصارة بالضم الموضع الذي تمصر فيه الخيل ..!»

فالمادة لغوية معجمية ما فى ذلك من شك ...! والمعنى اللغوي لكلمة المصارة كما شاهدنا فى النص . هو الميدان الذي تطلق فيه الخيل لاجل العدو والسباق واستخراج الطاقة الحيوانية .

ومن شأن الميدان المعد لذلك ان يكون خارج المدينة فى فضاء فسيح .. !

فاذا اطلق الاندلسيون كلمة (المصارة) على الفضاء الفسيح المحيط بمدينة من مدنهم الكبرى المشتمل عادة على الحقول والجنات والمياديين الواسعة ... فان ذلك ضرب من ضروب المجاز اللغوي المعروفة المستعملة فى فصيح اللغة ...!

اما اذا كان هذا الفضاء مستعملا كلا او بعضا لعدو الخيول وسباقها بالفعل ..! فان الاطلاق يكون اذ ذاك حقيقة لغوية ... لا مجازا ..!

وبهذا ظهر ان كلمة (المصارة) لها اصل لغوي صحيح . وان الاصطلاح الاندلسي مبني على هذا الاصل ...! فلا مجال فيها للتوقف ..! لا من جهة الاصل ..! ولا من جهة الدلالة ..!

وفى المغرب نجد الكلمة مستعملة عند عدد من المؤلفين . الا اننا سنشير الى بعض النصوص التي وردت فيها على سبيل المثال لا على سبيل الاستقصاء..!

— فمؤلف كتاب : (روض القرطاس) يقول : « ويحصد الزرع بفحص المصارات — كذا — التي بخارج باب الشريعة من ابواب عدوة القرويين عن اربعين يوما ...! وقد شاهدت الزرع حرث بالمصارة المذكورة فى خامس عشر من شهر ابريل . وحصد فى آخر مايه ..!! » (5)

— ونجد الروض المريني المسمى بروض المصارة مذكورا فى عدة مصادر كتبت بأقلام اعلام ذلك العصر .. ومن بعدهم .. !

— فابن الخطيب فى (نفاضة الجراب) يذكر جنة المصارة ويعبر عنها مرة أخرى بروض المصارة. ويصف المهرجانات والاحداث التي شاهدها هناك ..!(6)

— وابن خلدون فى (العبر) يذكر روض المصارة الذي انزل به ابو الحسن المريني ضيفه ابن الاحمر وكان هذا الروض لصق دار ابى الحسن ..! كما يقول ابن خلدون .. ! (7)

---

2) الارقام المذكورة فى فهرسة القسم المذكور ... !
3) ابن عذاري ج 2 ص 199
4) نصوص الاندلس ص 5 معهد الدراسات الاسلامية بمدريد 1965 م
5) الجزء الاول ص 59 . ط . الرباط 1936 م وانظر ايضا ص 54 من نفس الجزء .. !
6) نفاضة الجراب ص 184 و 213 و 217
7) العبر ج 7 ص 531 . ط . بيروت 1959 م

وغني عن التأكيد اننا هنا بصدد البحث عن (كلمة) المصارة .. ! لا عن (موضع) المصارة ...

واشتهرت هذه الكلمة فى عصر بني مرين وفى الوثائق المتعلقة بعاصمتهم ... ومن اجل ذلك تداولتها الالسنة والاقلام طوال قرون بعدهم . واستمر ذلك الى الآن ... ! فى الوثائق الخطية المتعلقة بالاملاك التي كانت تجاور المصارة لمعينين أو للاحباس ..!

ولا شك ان رسم الكلمة رسما صحيحا يتوقف على استحضار أصلها اللغوي ومعرفته ... ! فاذا نسي هذا الاصل أو اهمل ..! فان الكلمة تأخذ طريقا أو طرقا الى التحريف والتصحيف ... ! وهذا ما حدث فى كلمة المصارة ...

وقد وصلنا الآن الى النقطة الثانية ... وهي الرسم الصحيح لكتابتها ... !

ونشير هنا الى اننا لاحظنا فى الوثائق التي مرت أمام اعيننا « وجلها من الصكوك المخطوطة » ان هناك من يكتبها ... المصارة ..! (بالصاد) ومن يكتبها المسارة ..! (بالسين)

ولا يبعد أن يكون غيرنا قد اطلع على رسمها رسما ثالثا أو اكثر .. !

— وفى مقدمة (جذوة الاقتباس) لابي العباس ابن القاضي نجد ناسخ الكتاب كتب المصارة هكذا « جنات المسارة » بالسين .. !

ولا شك ان ما قدمناه كاف لاقناعنا ان رسم الكلمة الصحيح لغة واصطلاحا هو (المصارة) بالصاد ... لا بالسين .. !

والغريب ان هذا التصحيف الذي لمسناه فيما يرجع للمصارة المغربية فى عاصمة بني مرين قد لحق المصارة الاندلسية فى عاصمة الامويين .. ! بناء على ما جاء فى صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ... ! (8)

وننتقل الى كلمة — المسرة —

فنيما يرجع الى الدلالة اللغوية نجد المسرة مصدرا ميميا للفعل سر ...! كما نجدها اسما لأطراف الرياحين ... (9)

اما فى المسموع بين الناس فى المغرب . وكذلك فى بعض الكتب التاريخية فان المسرة تعني جنة فيحاء من جنات مراكش الحمراء وقد اسست هذه الجنة وغرست وجرت اليها المياه على عهد الموحدين ..!!

وعلى المنهاج الذي سرنا عليه فاننا نبحث عن (كلمة) المسرة ... ! لا عن (موقعها) أو (صفاتها) التي ذكرها المؤرخون ..! أو بعبارة أوجز وادق .. فاننا نبحث عن الاسم لا عن المسمى ... !

فهل سمى الموحدون منشآتهم التي غرسوها بانواع الاشجار والرياحين فى مراكش بهذا الاسم — المسرة — فعلا ... ؟؟

ومع اعترافنا من الناحية اللغوية بصحة تسمية الرياض وما فى معناها باسم المسرة . لكونها ظرفا للسرور الانشراح ... أو سببا من اسبابها . أو لغير ذلك من العلاقات ..! فان البحث هنا منصرف الى شيء آخر ... وهو كما قلنا آنفا .. :

— هل سمى الموحدون منشآتهم التي غرسوها بانواع الاشجار والرياحين فى مراكش بهذا الاسم — المسرة — فعلا .. ؟؟

ونؤكد اننا لا نشك ان الموحدين جملوا عاصمة الامبراطورية الكبرى بعدد من الحدائق والجنات والقصور والمساجد والمبرات ... !

ولكن هناك فرقا بين « انشأوا » وبين « سموا » ونحن نبحث عن الثانية دون الاولى ... دفعا لكل التباس ..!

فالمؤرخون الذين تناولوا تاريخ مراكش وهم كثيرون يذكرون « المسرة » باعتبارها من منشآت الموحدين ونكتفي هنا بالاشارة الى المقدمة الحافلة لكتاب « الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام » لمؤلفه القاضي عباس ابن ابراهيم رحمه الله ... ! فاننا نجد فيها نقلا عن المؤرخين .. ان عبد المومن « انشأ » المسرة ... ! التي بظاهر جنان الصالحة ... كما نجد ان عبد المومن « انشأ » المسرة وهي البستان الذي « جدده » المنصور الذهبي ... ! (10)

وبحثنا — جهد الامكان — منذ مدة فى المصادر والكتب التي لابس مؤلفوها دولة الموحدين وعرفوا

---

8) المجلد الثالث عشر مدريد 1965 م — 1966 م
9) اعتمدنا على تاج العروس فى المادة ..!
10) انظر من الصفحات 67 و 86 و 94 .

عاصمتهم مراكش . ومنهم من سكنها فعلا فى العصر الموحدي ... ! فلم نجد فيها تسمية ما انشاه الموحدون هناك باسم « المسرة » ولا باسم « المصارة » .. !! بل وجدنا اسماء اخرى لا غرض لنا بذكرها الآن ... !

واهم هذه الكتب الموحدية هي :

— الاستبصار فى عجائب الامصار

— المعجب فى تلخيص اخبار المغرب

— القسم المنثور من نظم الجمان لابن القطان .

— تاريخ المن بالامامة لابن صاحب الصلاة

— مجموع رسائل موحدية

— كتاب المؤرخ البيدق

بل اننا نجد المؤرخ البيدق يذكر فى كتابه : اخبار المهدي. ان عبد المومن كلف اميرا من امراء الاندلس وهو احمد بن ملحان ..؟ ملك وادي آش ..! بتنسيق بستانه العظيم الذي انشاه بمراكش وهذا البستان يسميه البيدق « شنطولية » (11) .

فهل جاءتنا كلمة « المسرة » التي نراها عند بعض المؤرخين من تعريب كلمة « شنطولية » التي حافظ لنا عليها المؤرخ البيدق .. ؟؟

ولا بد لنا هنا من تطبيق القاعدة المعروفة فى الابحاث العلمية وهي :

— ان عدم الوجدان لا يقتضى عدم الوجود ... !

فاذا لم يتيسر لنا الآن الاطلاع على نص موحدي فيه كلمة « المسرة » فمن الجائز ان غيرنا من الباحثين — مستشرقين او عرب — قد اطلعوا عليه فعلا .. او سيطلعون عليه فى مخطوط او مطبوع ... !!

اذ ان من السهل ان يثبت الباحث شيئا وقف على نص يثبته ... ولكنه من الصعب ان ينفي شيئا لم يجد له نصا ... !!

هذا اذا كان يحترم منطق العلم .. !

ويطبق آداب البحث ... !

واذا كان المؤرخون الذين كتبوا مؤلفاتهم بعد عصر الموحدين قد استعملوا كلمة « المسرة » فيما يرجع لمنشآت الموحدين بمراكش ...! فانهم استعملوا كلمة «المصارة» فيما يرجع لمنشآت المرينيين بفاس..!

ولكن لا ينبغي ان نستنتج من ذلك نتائج جزافية او نفرض فروضا خيالية لا سند لها من النصوص .. لهذا كان من اللازم ان نتابع البحث الذي بدأناه .. ونسير به فى كتب المتاخرين كما فعلنا فى كتب المتقدمين

— فالمؤرخ اكنسوس فى (الجيش العرمرم) وهو خبير بتاريخ مراكش وفاس .. يذكر فى كتابه .. مسرة الموحدين بمراكش(12) كما يذكر مسرة فاس..! ويقول عن هذه الاخيرة بالحرف : « واما المسرة فليست الا على ضفة نهرها المطرد ... ! (13)

فعن مسرة مراكش فان كلام اكنسوس يدخل فى عموم كلام المؤرخين الذين كتبوا مؤلفاتهم بعد عصر الموحدين ...! حيث اننا تحفظنا ونتحفظ الى ان نجد نصا موحديا يسمي منشآت الموحدين «مراكش باسم (المسرة) فعلا ... !

وعن مسرة فاس ... ؟

فان الامر يستدعي ان يقوم دليل يدل على ان هناك بفاس شيئين اثنين :

(المصارة) التي تحدثت المصادر عنها كما شاهدنا ذلك فى النصوص السابقة ... !

(والمسرة) التي ذكرها اكنسوس ... ! والحالة هذه . ونحن لحد الآن ... لا نعرف الا الاولى .. !

— والمؤرخ الواعية ابو العباس المقري حدثنا فى كتابيه : روضة الآس ... ونفح الطيب عن روض المسرة الذي هو ثالث مصانع المنصور الذهبي .. (14)

للبديع ..! والمشتهى ..! والمسرة ..! والظاهر انها كلها بمراكش ..!

ويقول المقري ان المنصور الذهبي ورى بمصانعه الثلاثة فى بيتين انشدهما ..

---

11) اخبار المهدي ابن تومرت ص 120 . ط باريز 1928 م .
12) الجزء الثاني ص 10 و 22
13) المصدر السابق ص 55
14) النفح ج 7 ص 80 و 81 . ط . بيروت وزهرة الآس ص 25 ط . الرباط

بستان حسنك (ابدعت) زهراتـــه
ولكم نهيت القلب عنه فما انتهـــى

وقوام غصنك (بالمسرة) ينثنـــي
يا حسنه رمانـــة (للمشتهـــى)

فالمنصور الذهبي المتوفى سنة 1012 هـ حينما سمى احد مصانعه العظمى بمراكش .. باسم (المسرة) كان يعبر عن رغبة خاصة ! كالرغبة التي دفعتـــه ليسمي المصنعين الآخريـــن باســـم (البديع) و (المشتهى)

ولهذا تكون (مسرة) الذهبي بمراكش امـــرا واقعا ليس له من دافع .. !

اما (مسرة الموحدين) بهذا الاسم فتحتـــاج في راينا المتواضع الى نص موحدي يثبت ان الموحديـــن استعملوا هذا الاسم .. !!

والذي يزيدنا اطمئنانا على هذا (التحفظ) الذي تحفظنا به في شأن كلمة (المسرة) هو ان ابا العباس المقري كان متمكنا من معرفة الاسماء والمسميات في الموضوع ...

فقد وجدناه يفرق بين (روض المسرة) الذي هو من مصانع المنصور الذهبي بمراكـــش .. ! فيكتـــب (المسرة) هكذا بالسين وبدون الف ... كما في النص الذي اشرنا اليه قبل في نفح الطيب وروضة الآس ...

وبين (قصر المصارة) بفاس الذي هو مـــن منشآت المرينيين فيكتب (المصارة) بالصاد بعدها الف ... كما هو الصواب .

وقد حدثنا المقري عن قصر المصارة المريني وروى لنا شعر ابن خميس الذي سمعه ابو عنان في هذا القصر ... ! (15)

---

15) ازهار الرياض ج 2 ص 316